

منطق المبالغة و سنة المفاضلة
في الأمثال العربية .

أمنية فزاري
أستاذة مساعدة
المركز الجامعي - الطارف

الملخص بالعربية :

احتل المثل مكانة مرموقة لدى الباحثين و الدارسين . و يحاول مقالنا هذا أن يفسر لنا منطق المبالغة و سنة المفاضلة في الأمثال العربية الفصيحة منها و الشعبية فضلا عن أمثال القرآن الكريم , و يوضح لنا الدلالات المختلفة لهذا المنطق و هذه السنة . كما اصطلحت على تسميتها . و تتمثل هذه الدلالات في : بيان قيمة الشيء أو الشخص . المبالغة . المفاضلة . المقارنة.

Résumé

Les proverbes occupent une grande place chez les chercheurs et les écrivains .Notre essai tente d'expliquer la logique d'exagération et le style de préférence dans les proverbes arabes classiques, populaires et du Coran , et de donner leur différentes significations qui sont: indiquer la valeur de la chose ou l'importance de la personne – L'exagération- La préférence-La comparaison.

المقدمة :

احتل المثل مكانة مرموقة في الأدب . عموماً . و في الأدب الشعبي . خصوصاً . فكان خير معبر عن عواطف الناس و حياتهم و تجاربهم , و أصفى مرآة تعكس نفسية المجتمع و أهواءه و أنماط تفكيره و سلوكياته و مواقفه : من نفسه و من الآخر و من المجتمع , و الكون و الحياة . فلا غرو . إذن . أن يعرف المثل . لغة . على أنه الشبيه و النظير و العبرة , و الآية . كذلك . جاء في (لسان العرب) : " و المثل الحديث نفسه " [ج 11 . ص 610] " و المثل : الشيء الذي يضرب لشيء مثلاً فيجعل مثله " [ج 11 . ص 610] و قد قال الله . عز و جل . في كتابه الكريم : {فجعلناكم سلفاً و مثلاً للآخرين} [الزخرف : 56] فمعنى السلف أنه جعلهم متقدمين يتعظ بهم المتأخرون . و من هنا كان المثل بمعنى الآية في قوله . عز و جل . وصفا لعيسى . عليه السلام . {و جعلناه مثلاً لبني إسرائيل} [الزخرف : 59] أي آية تدل على نبوته لما كان مثلاً يحتذى به في الأخلاق و الدين و العلم و الحياة .

أما اصطلاحاً , فهو قول مأثور يمثل خلاصة تجارب حياتية و محصلة خبرات إنسانية (فردية أو جماعية) يتميز بإيجاز اللفظ و إصابة المعنى و جودة الكناية . و من هنا , فهو كالعملة ذات الوجهين : وجه يشتمل على معنى ظاهر و آخر يمثل معنى خفياً هو المعنى المراد و المقصود , وجه يحيل على الحادثة الأولى التي قيل فيها المثل لأول مرة (المورد) , و آخر يحيل على الحادثة المشابهة للأولى و التي يعاد فيها ضرب ذلك المثل (المضرب) .

و قد شغل المثل الباحثين و الدارسين منذ زمن بعيد فخصوه بالدراسة و أحاطوه بالعناية و الاهتمام , و في مقدمة هؤلاء نذكر فردريك زايلى بكتابه (علم الأمثال الألمانية), و الأبشيهي بكتابه (المستطرف في كل فن مستظرف) و أحمد تيمور بكتابه (الأمثال العامية) , و أحمد أمين بكتابه (قاموس العادات و التقاليد و التعابير المصرية) , و السيدة فائقة حسنين راغب بكتابه (حدايق الأمثال العامية) , و ألكسندر هجرى كراب بكتابه (علم الفولكلور) , و نبيلة إبراهيم بكتابه (أشكال التعبير في الأدب الشعبي) .

تحليل عنوان المداخلة :

و كان أكثر ما أثار انتباه هؤلاء الباحثين و الكتاب و الدارسين منصبا على تعريف المثل لغة و اصطلاحا و على تحديد مميزاته و بيان أبرز موضوعاته , و التعرض لتاريخ نشأته و ظهوره بكثير من التفصيل .

أما موضوع مداخلتي هذه , فهو من باب موضوعات المثل , ألا و هو : (منطق المبالغة و سنة المفاضلة في الأمثال العربية) .

قد يبدو . للوهلة الأولى . أنه موضوع غريب , غير مألوف , أو . على الأقل . غير واضح , لا يحيل ظاهره على باطنه , و لا يكاد يبين .

و الحقيقة أنه موضوع طريف يصب في صلب التعبير الأدبي الشعبي الأصيل . فتناقض الأشياء و تضادها سنة من سنن الكون أوجدها الخالق . جل و علا . و سنها و قدرها حتى قبل أن تمتد أيدينا إلى ملامسة حقيقتها أو تجرأ عقولنا على فك طلاسمها و رموزها . و قد صدق بعض الحكماء حين قال : إنما تعرف بأضدادها الأشياء . فما قيمة النهار إذا لم يسبقه ليل حالك ؟ ! و ما نشوة الانتصار إذا لم تسبقها هزائم متكررة و عثرات متفرقة ؟ ! و هل تعرف التوبة إلا بعد العصيان و هل يوجد ندم إلا بعد خطيئة ؟ ! و من هنا , و على هذا الأساس , كانت المبالغة منطقا و كانت المفاضلة سنة : فلا مناص من مقابلة الضد بال ضد !

و العنوان . كما هو واضح . مؤلف من شطرين رئيسين : (منطق المبالغة) و (سنة المفاضلة) .

هو منطق , لأنه متغلغل في أعماق الروح الإنسانية مولود من رحم التفكير الإنساني الأصيل حتى أصبح بمثابة العادة المتأصلة المغروسة في أعماق المجتمع , مجتمع هي جزء لا يتجزأ منه .

و هي سنة , لأن الإنسان منحاز بطبعه , مفضل , ميال إلى المقارنة بين الأشياء لا يكاد يسلم من تفضيل شيء على شيء أو شخص على شخص , فينحاز إلى هذا دون ذاك , و من هنا فهو يعبر عن ذلك في شكل أمثال (فصيحة أو شعبية) . يتكلم بها و يحلي بها مجالسه , رغبة منه في بيان أحب الأشياء إلى نفسه أو الأشخاص إلى قلبه . و بتعبير آخر , إنها سنة أو منطق يجري في دماء الناس أو الشعب كما يجري الدم في العروق .

العرض:

و الأمثلة على ذلك كثيرة و متعددة , و هي أكثر من أن تعد أو تحصى , يمتد أثرها من الأدب العامي ليشمل الأدب الشعبي و الأدب العربي الفصيح و القرآن الكريم :
(الخطاب العامي . الخطاب الشعبي . الخطاب الأدبي الفصيح . النص القرآني).

أولاً : في الأدب العربي الفصيح :

ففي قولنا (أفوت من أمس) مقابلة بين الحاضر و الماضي , و في قولنا (أيأس من غريق) مقابلة بين اليأس و الأمل , و في قولنا (أجهل من عقرب) مقابلة بين الجهل و العلم , و في قولنا (أطمع من أشعب) مقابلة بين الطمع و القناعة , و في قولنا (أعدل من ميزان) مقابلة بين العدل و الظلم , و في قولنا (أعز من الزباء) مقابلة بين العزة و الذلة , و في قولنا (أجود من حاتم) مقابلة بين الجود و البخل ... و هكذا ... و هذا جدول يوضح بعضاً من ذلك :

الرقم:	المثل:	هو مقابلة :
1	أفسد من السوس	بين الفساد و الصلاح
2	أنقى من الدمعة	بين النقاء و الدنس
3	أجبن من نعامة	بين الجبن و الشجاعة
4	أجراً من أسامة	بين الجرأة و التحفظ
5	أجرد من صلعة	بين العري و الكسوة
6	أجفى من الدهر	بين الجفاء و الوصل
7	أجوع من قراد	بين الجوع و الشبع
8	أجول من قطرب	بين السياحة و القعود
9	أحر من الجمر	بين السخونة و البرودة
10	آكل من النار	بين الاحتواء و عدم الاحتواء
11	أحذر من ذئب	بين الحذر و التساهل
12	أحزم من حرياء	بين الحزم و العجز
13	أحرص من نملة	بين الحرص و اللامبالاة
14	أحقد من جمل	بين الحقد و الحلم
15	أحكم من لقمان	بين الحكمة و السذاجة

16	أحفظ من الأرض	بين الاحتفاظ بالشيء و عدم الاحتفاظ به
17	أحلى من العسل	بين الحلاوة و المرارة
18	أخف من ريشة	بين الخفة و الثقل
19	أخلف من عرقوب	بين خلف الوعد و الوفاء به
20	أرق من النسيم	بين الرقة و الخشونة
21	أرفع من السماء	بين الرفعة و السفالة
22	أروغ من ثعلب	بين المراوغة و الاستقامة
23	أزهى من طاووس	بين الاختيال و التواضع
24	أشرب من الرمل	بين النفوذ و الكتمان
25	أطغى من السيل	بين الطغيان و الانسياب
26	أغبي من هبنقة	بين الغباء و الذكاء
27	أحلم من الأحنف	بين الحلم و الحقد
28	أنطق من سحبان	بين النطق و البكم
29	أنفذ من السهم	بين إصابة الهدف و عدم إصابته
30	أنفر من ظبي	بين النفور و الانجذاب
31	أنكر من شيء	بين التكثير و التعريف
32	أوفى من السموأل	بين الوفاء و الغدر
33	أمر من العلقم	بين المرارة و الحلاوة
34	أنأى من الكوكب	بين البعد و القرب
35	أمضى من السيف	بين المضاء و عدم المضاء
36	أكسى من كعبة	بين الكسوة و العري
37	أكذب من يلمع	بين الكذب و الصدق
38	أقرب من جبل الوريد	بين القرب و البعد
39	أعقد من ذنب الضب	بين التعقيد و البساطة
40	أعدى من الجرب	بين العدوى و المناعة
41	أظماً من رمل	بين الظماً و الارتواء
42	أسرع من لمح البصر	بين السرعة و البطء

43	أبخل من مادر	بين البخل و الكرم
44	أبله من حبارى	بين البلاهة و النباهة
45	أتبع من الظل	بين التبعية و الاستقلال
46	أتيه من قوم موسى	بين التيه و الهداية
47	أبلغ من قس	بين البلاغة والعلي
48	آلف من كلب	بين الألفة و الغربة
49	أبكر من غراب	بين الإبطاء و الإبطاء
50	أخيب من حنين	بين الخيبة و الرجاء
51	أدنى من حبل الوريد	بين الدنو و البعد
52	أبهى من القمرين	بين البهاء و القبح
53	أبصر من زرقاء اليمامة	بين الإبصار و العمى
54	أتم من قمر التم	بين التمام و النقص
55	أثبت في الدار من الجدار	بين الثبات و الاهتزاز

ثانيا : في الأدب العربي الشعبي :

ففي قولنا (تقول للشمس طلي و الا نطل أنا) مقابلة بين الحسن و القبح , و في قولنا (تقول عليه قارون) مقابلة بين الغنى الفاحش و الفقر المدقع , و في قولنا (كوما جيتش نعرفو نقول فرعون) مقابلة بين الطغيان و الحلم و بين الظلم و العدل , و في قولنا (تقول علاها الزازية أم قطاطي) مقابلة بين البهاء الأخاذ و القبح , و في قولنا (قاعد كي الشيطان) مقابلة بين الفعل القبيح و الفعل الحسن أو بين الشر و الخير , و في قولنا (قاعد كي الضبع) مقابلة بين البلادة و النباهة , و في قولنا (قاعد كي القرية المحروقة) مقابلة بين القبح و الحسن , وفي قولنا (قاعد كي الهايشة) مقابلة بين العجز و الحزم أو بين الجهل و العلم , و في قولنا (تطير مع الطايرين) مقابلة بين العمل و الكسل و بين لاجتهاد و التواكل أو بين سرعة الإنجاز و إتقان العمل و بين التقاعس عن أدائه , و في قولنا (كي الجن) مقابلة بين السرعة الخاطفة و البطء و بين روعة الإنجاز و عظمتة و بين بساطته , و في قولنا (كي التاتة) مقابلة بين كثرة التلون و التغير من حال إلى حال و بين الثبات على حالة واحدة و التمسك بموقف واحد , و في قولنا (كي النماله) مقابلة بين البطء و سرعة الحركة و خفتها أو بين صغر حجم الأشياء و كبره.

ثالثا : في القرآن الكريم :

ففي قوله تعالى: {إن أهون البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون} [العنكبوت: 41] مقابلة بين الوهن والقوة وبين ضعف البناء ومتانته , وفي قوله تعالى: {فتبارك الله أحسن الخالقين} [المؤمنون : 14] مقابلة بين بهاء الله - عز وجل - وبهاء خلقه إذا ما قورن بجميع مخلوقاته , فلا خالق سواه , وفي قوله تعالى : {إن خير من استأجرت القوي الأمين} [القصص : 26] , مقابلة بين حمل الأمانة والوفاء بها وبين خيانتها والوقوف دون أدائها , وفي قوله تعالى : {إن أنكر الأصوات لصوت الحمير} [لقمان: 19] مقابلة بين قبح الأصوات وجمالها (أو حسنها) , وفي قوله تعالى: {و لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا , اعدلوا هو أقرب للتقوى} [المائدة : 8] مقابلة بين التقوى والعصيان أو بين القرب من التقوى والبعد عنه , وفي قوله تعالى {أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى} [يونس: 35] مقابلة بين الحق والباطل أو بين اتباع الحق واتباع الباطل , وفي قوله تعالى: {و كان الإنسان أكثر شيء جدلا} [الكهف: 54] مقابلة بين الجدل وعدم الجدل أو بين شدة ارتباط الإنسان بالجدل وضعف ارتباطه به (أو عدمه) , وفي قوله تعالى: {لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون} [غافر: 57] مقابلة بين خلق الله السموات والأرض وبين خلقه بني آدم (البشر) , وفي قوله تعالى : {أنتم شر مكانا} [يوسف: 77] مقابلة بين شر الأماكن وأحسنها , وفي قوله تعالى : {و أن تعفوا أقرب للتقوى و لا تتسوا الفضل بينكم} [البقرة: 237] مقابلة بين التقوى والعصيان أو بين القرب من التقوى والبعد عنه , وفي قوله تعالى : {و مكروا و مكر الله و الله خير الماكرين} [آل عمران : 54] مقابلة بين مكر الله تعالى وكيدته وبين مكر الناس وكيدهم , وفي قوله عز وجل: {و رحمة ربك خير مما يجمعون} [الزخرف: 32] مقابلة بين رحمة الله - تعالى - وبين نعيم الدنيا وما كسب العباد ... وهكذا ... والأمثلة على ذلك من القرآن الكريم كثيرة ...

الدلالات :

يحتل هذا النوع من التعبير (المبالغة و المفاضلة) مكانة خاصة و موقعا متميزا بين جميع أصناف التعبير الأخرى , فهو غني بالدلالات زاهر بمختلف أنواع الرموز التي تفتح نوافذ لا قبل لنا بها من الإحالات و الاحتمالات , نحصرها في أربع نقاط رئيسة , هي :

أولا: أنه يسهم في بيان قيمة الشيء (المقصود).

ثانيا: أنه يفيد المفاضلة.

ثالثا: أنه يفيد المبالغة.

رابعا: أنه يفيد المقارنة.

أولا: بيان قيمة الشيء:

نتبين ذلك في مثل قولنا (أرفع من السماء) دلالة على أن هذا الشخص رفيع الدرجة عالي المكانة , أو قولنا (أحلى من العسل المصفى) دلالة على بلوغ درجة معينة من اللذة و الانتشاء و الأريحية لدى الحصول على هذا الشيء . فالمثل الأول يحدد موقع ذلك الشخص على وجه التقريب , و الثاني يضع ذلك الشيء (الشيء المقصود) في خانة معينة تحدد قيمته , و إن بشيء من المبالغة.

ثانيا: المفاضلة.

و تكون عند تفضيلنا شخصا على شخص, كأن نفاضل بين البخيل و الكريم , و بين الكاذب و الصادق , و بين الظالم و العادل , وبين الوفي و الغادر , و بين القبيح و الحسن , و بين الجبان و الشجاع نلمس ذلك في مثل قولنا (أجود من حاتم) و (أصدق من القطا) و (أعدل من ميزان) و (أوفى من السموأل) و (أبهى من القمرين) و (أجبن من نعامة) و (أجراً من أسامة) ...

أو تكون بتفضيلنا شيئا على شيء آخر أو جوهر ما على جوهر آخر , كأن نفاضل بين الحلو و المر , و بين النافع و الضار , و بين الصالح و الفاسد , و بين الثمين و الرخيص ... نلمس ذلك في مثل قولنا : (أحلى من العسل المصفى) و (أفسد من السوس) و (أحقر من التراب) و (أنقى من الدمعة) ...

ثالثا: المبالغة.

لعل أهم ما يميز هذا الأسلوب كونه بابا من أبواب المبالغة , إذ أنه قد يرفع من قيمة الشيء حتى يبلغ به عنان السماء و قد يهوي بشيء ما (أو شخص معين) إلى أسفل السافلين , فنصدق (أو نكاد نفعل) بأن هذا علي و ذاك ضيع , و هذا رفيع و ذاك سافل , و هذا جميل و ذاك قبيح ... نلمس ذلك في مثل قولنا : (أحرص من نملة) . (أبخل من مادر) . (أجهل من عقرب) . (أغبى من هبنقة) . (أحذر من ذئب) . (أحقر من التراب) . (أفسد من

السوس) . (أجفى من الدهر) . (أحر من الجمر) ... و لا يخفى ما في هذه الأمثال من مبالغة . و أصل ذلك و تفسيره أن النملة أكثر المخلوقات جدا و اجتهدا فهي مثال للتفاني في العمل و إتقانه. أما مادر , فهو رجل من بني هلال " بلغ من بخله أنه سقى إبله فبقي في أسفل الحوض ماء قليل فسلح فيه و مدر به الحوض أي طانه بخلا منه و لئلا ينتفع به من بعده . فسمي مادرا " [المنجد في اللغة و الأعلام : ج 1 , ص 8[972 . ووصفت العقرب بالجهل لأنها إذا مرت بالصخرة ضربتها بإبرتها فلا تضرها و لكنها تضر إبرتها [المنجد في اللغة و الأعلام : ج 1 , ص 978]

رابعاً: المقارنة.

و يكون ذلك بين شيئين أو بين شخصين معينين بحيث يفضي بنا ذلك إلى رفع قيمة أحدهما و الحط من قدر الآخر , و من مثل ذلك قولنا (أجبن من نعامة) , إذ يقتضي الموقف المعيش أن تصدر على أحدهم حكما بالجبين مقارنة بالآخر الذي قام و تصدى و أقدم و قاوم بكل ما أوتي من شجاعة و بسالة. و أصل المثل أن النعامة . على حد قول العرب القدماء . إذا خافت من شيء لا ترجع إليه بعد ذلك الخوف أبدا [المنجد في اللغة و الأعلام: ج 1 , ص 976] . و من ذلك أيضا قولنا (أخف من ريشة) إذا شهدنا خفة عقل أحدهم في موقف يسفر عن بلوغ أحدهم حد الكمال و الاتزان , و عادة ما يتمثل ذلك في السلوك و المعاملات . و من ذلك قولنا (أكذب من يلمع) إذا بلغ كذب أحدهم مبلغا لم يعد معه مجال إلى تصديقه فأمره مكشوف و موقفه وسط الجمع ضعيف فهل يستوي الصادق و الكاذب؟! و (يلمع) هو السراب فهل نحصد من السراب غير السراب؟! و لا يختلف اثنان في مدى حذر الذئب أو حقارة التراب , فضلا عما يحيل عليه كل من السوس و الدهر و الجمر.

و يمكن قراءة هذه المسألة (المقارنة) من أربع زوايا , هي :

- 1 - جوهر المقارنة.
- 2 - المشبه (الشيء أو الشخص المقصود) .
- 3 - المشبه به (الأصل).
- 4 - المشبه به (الفرع).

الرقم:	المثل :	جوهر المقارنة:	المشبه :	المشبه به (الأصل):	المشبه به (الفرع):
1	أجبن من نعامة	الشجاعة	الشخص المتكلم عنه	النعامة	شخص معين
2	أبلغ من قس	البلاغة	//	شخص اسمه قس	//
3	أكذب من يلمع	الصدق	//	يلمع (السراب)	//
4	أعز من الزياء	العزة	//	امرأة اسمها الزياء	//
5	أجرأ من أسامة	الجرأة و الإقدام	//	أسامة (الأسد)	//
6	أحلم من الأحنف	الحلم	//	رجل اسمه الأحنف	//

الخاتمة :

و خلاصة القول أن منطق المبالغة و سنة المفاضلة قد ميزا كثيرا من الأمثال العربية الفصيحة منها و الشعبية فضلا عن أمثال القرآن الكريم و قد زادها بهاء و رونقا و جاذبية. و يمكن حصر النتائج المتوصل إليها في النقاط التالية :

- 1 - يسهم هذا النمط من الأمثال في بيان قيمة الشيء أو الشخص (المقصود) و هو ما يؤدي إلى شد الأنظار إليه.
- 2 - يفيد هذا النمط من الأمثال المفاضلة بين شيئين أو شخصين لأنه ينبئ عن انحياز المتكلم إلى أحد الطرفين و تفضيله إياه.
- 3 - يفيد هذا النمط من الأمثال المبالغة و يقصد بها رفع قيمة الشيء أو الشخص حتى ليبلغ عنان السماء أو النزول به حتى ليصبح في أسفل السافلين.

4 - يفيد هذا النمط من الأمثال المقارنة لأنه يقابل بين شيئين أو شخصين عن طريق إبراز قيمة كل منهما.

و أود أن أنبه في الأخير لمسألة بالغة الأهمية و هي أن هذا المنطق و تلك السنة يدلان على امتلاك العرب حسا نقديا و هذا ما يكشف عن طبيعة التفكير العربي فهذه القدرة على المفاضلة و المقارنة بين أمور دقيقة لا ينتبه إليها إلا صاحب عقل و بصيرة و فكر تنبئ عن صفاء و نقاء فكريين و لا يخفى ما للملاحظة و التجربة من دور مهم في بلورة أبعاد هذه المسألة.

الهوامش :

[1], [2] ابن منظور , لسان العرب , ج 11 (ل) , دار صادر / دار بيروت , بيروت - لبنان , ص 610.

[3] مجمع اللغة العربية , المنجد في اللغة و الأعلام , فرائد الأدب في الأمثال و الأقوال السائرة عند العرب , دار المشرق , بيروت - لبنان , ج 1 , ص 972.

[4] المرجع نفسه , ج 1 , ص 978.

[5] المرجع نفسه , ج 1 , ص 976.